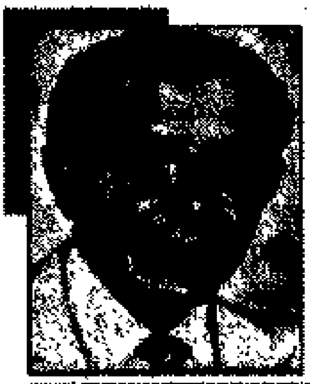

١

علم نفس
قرآني جديد

علم نفس
قرآني جديد

سيداتى وسادتى.. هل تعلمون ما معنى أن الله موجود؟

معناه أن العدل موجود والرحمة موجودة والمغفرة موجودة.

معناه أن يطمئن القلب وترتاح النفس ويسكن الفؤاد ويزول القلق فالحق لابد واصل لأصحابه.

معناه.. لن تذهب الدموع سدى ولن يمضى الصبر بلا ثمرة ولن يكون الخير بلا مقابل ولن يمر الشر بلا رادع ولن تفلت الجريمة بلا قصاص.

معناه أن الكرم هو الذى يحكم الوجود وليس البخل.. وليس من طبع الكريم أن يسلب ما يعطيه.. فإذا كان الله منحنا الحياة فهو لا يمكن أن يسلبها بالموت.. فلا يمكن أن يكون الموت سلبا للحياة.. وإنما هو انتقال بها إلى حياة أخرى بعد الموت ثم حياة أخرى بعد البعث ثم عروج فى السموات إلى مالا نهاية.

معناه أنه لا عبث فى الوجود وإنما حكمة فى كل شيء.. وحكمة من وراء كل شيء.. وحكمة فى خلق كل شيء.. فى الألم حكمة وفى المرض حكمة وفى العذاب حكمة وفى المعاناة حكمة وفى القبح حكمة وفى الفشل حكمة وفى العجز حكمة وفى القدرة حكمة.

معناه ألا يكف الإعجاب وألا تموت الدهشة وألا يفتر الانبهار وألا يتوقف الإجلال.

فنحن أمام لوحة متجددة لأعظم المبدعين.

معناه أن تُسبح العين وتُكبر الأذن ويحمد اللسان ويتيه الوجدان ويبهت الجنان.

معناه أن يتدفق القلب بالمشاعر وتحتفل الأحاسيس بكل لحظة وتزف الروح كل يوم جديد كأنه عرس جديد.

معناه ألا نعرف اليأس ولا نذوق القنوط.

معناه أن تذوب همومنا في كنف رحمة الرحيم ومغفرة الغفار.. ألا يقول لنا ربنا.. ﴿إن مع العسر يسرا﴾ .. وأن الضيق يأتي وفي طياته الفرج فأي بشرى أبعث للاطمئنان من هذه البشري.

ولأن الله سبحانه.. واحد.. فلن يوجد في الوجود إله آخر ينقض وعده ولن ننقسم على أنفسنا ولن تتوزعنا الجهات ولن نتشتت بين ولاء لليمين وولاء لليسار وتزلف للشرق وتزلف للغرب وتوسل للأغنياء وارتماء على أعتاب الأقوياء.. فكل القوة عنده وكل الغنى عنده وكل العلم عنده وكل ما نطمح إليه بين يديه.. والهرب ليس منه بل إليه.. فهو الوطن والحمى والملجأ والمستند والرصيد والباب والرحاب.

وذلك الإحساس معناه السكن والطمأنينة وراحة البال والتفاؤل والهمة والإقبال والنشاط والعمل بلا ملل وبلا فتور وبلا كسل وتلك ثمرة «لا إله إلا الله» في نفس قائلها الذي يشعر بها ويتمثلها، ويؤمن بها ويعيشها وتلك هي أخلاق المؤمن بلا إله إلا الله.

وتلك هي الصيدلية التي تداوي كل أمراض النفوس وتشفي كل علل العقول وتبريء كل أدواء القلوب.

وتلك هي صيحة التحرير التي تحطم أغلال الأيدي والأرجل

والأعناق وهي أيضا مفتاح الطاقة المكنوزة في داخلنا وكلمة السر التي تحرك الجبال وتشق البحور وتغير ما لا يتغير.

ولم يخلق إلى الآن العقار السحري الذي يحدث ذرة واحدة من هذا الأثر في النفس.

وكل عقاقير الأعصاب تداوي شيئا وتفسد معه ألف شيء آخر.. وهي تداوي بالوهم وتريح الإنسان بأن تطفيء مصابيح عقله وتنومه وتخدره وتلقي به إلى قاع البحر موثوقا بحجر مغمى عليه شبه جثة.

أما كلمة لا إله إلا الله فإنها تطلق الإنسان من عقاله وتحرره من جميع العبوديات الباطلة وتبشره بالمغفرة وتنجيه من الخوف وتحفظه من الوسواس وتؤيده بالملأ الأعلى وتجعله أطول من السماء هامة وأرسخ من الأرض ثباتا.. فمن استودع همه وغمه عند الله بات على ثقة ونام ملء جفنيه.

ولأن الله هو خالق الكون ومُقَدِّر الأقدار ومُحَرِّك المصائر.. فليس في الإمكان أبدع مما كان.. لأنه المبدع بلا شبيه.. لا يفوقه في صنعته أحد.. فلن تعود الدنيا مسرحا دمويا للشرور وإنما درسا رفيعا من دروس الحكمة.

ولأن الله موجود فإنك لست وحدك.. وإنما تحف بك العناية حيث سرت وتحرسك المشيئة حيث حللت.

وذلك معناه شعور مستمر بالائتناس والصحبة والأمان.. لا هجر.. ولا غدر.. ولا ضياع.. ولا وحدة.. ولا وحشة ولا اكتئاب.

وذلك حال أهل «لا إله إلا الله».

يذوقون شميم الجنة في الدنيا قبل أن يدخلوها في الآخرة وهم الملوك بلا عروش وبلا صولجان.. وهم الراسخون

المطمئنون الثابتون لا تزلزلهم الزلازل ولا تحركهم النوازل.

تلك هي الصيدلية الإلهية لكل من داهمه القلق.. فيها علاجه الوحيد.. وفيها الإكسير والترياق وماء الحياة الذى لا يظمأ بعده شاربه.. وفيها الرصيد الذهبي والمستند لكل ما نتبادل على الأرض من عملات ورقية زائلة متبدلة.. وفيها البوصلة والمؤشر والدليل.

وفيها الدواء لكل داء.

التركيبة النفسية الإيمانية

والمؤمنون أهل حلم وصبر وتواضع وتسامح وحياء.

﴿يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ (٦٣ الفرقان)

تعرفهم بطول الصمت وتواصل الفكر وخفض الصوت والبعد عن الهرج والصخب والتلاعن.

وتعرفهم بالتأنى والاتقان والإحسان فيما يعهد إليهم من أعمال، وتعرفهم بالدماثة ولين الطبع والصدق والوفاء والاعتدال فى الأخذ من كل شيء.

وإذا كان لابد من اختيار صفة واحدة جامعة لطابع المؤمن لقلت هي :

السكينة، فالسكينة هي الصفة المفردة التى تدل على أن الإنسان استطاع أن يسود مملكته الداخلية ويحكمها ويسوسها.

وهي الصفة المفردة التى تدل على انسجام عناصر النفس والتوافق بين متناقضاتها وانقيادها فى خضوع وسلاسة لصاحبها وهي أمر لا يوهب إلا لمؤمن.

وأنت تقرأ هذه السكينة في هدوء صفحة الوجه.. ليس هدوء السطح بل هدوء العمق.. هدوء الباطن.. وليس هدوء الخواء ولا سكون البلادة، وإنما هدوء التركيز والصفاء واجتماع الهمة ووضوح الرؤية.. وكأنما الذى تراه أمامك يضم البحر بين جنبيه.

والبحر ساكن ولكنه جياش يطرح اللآلىء والأصداف والمراجين من أعماقه لحظة بعد لحظة، فهو غنى الغنى اللانهائى.

وهذه خاصية المؤمن.. ذلك الهدوء المشع الثري.. لماذا ..؟!

لأن علاقة المؤمن بما حوله علاقة متميزة مختلفة.. علاقته بالأمس والغد وعلاقته بالموت.. وعلاقته بالناس.. وعلاقته بعمله ونظرته للأخلاق.

فالأخلاق بالمعنى المادى الواقعى هى أن تشبع رغباتك بما لا يتعارض مع حق الآخرين فى إشباع رغباتهم هم أيضا، فهى مفهوم مادى اجتماعى بالدرجة الأولى وهدفها حسن توزيع اللذات.

أما الأخلاق بالمعنى الدينى - فهى بالعكس - أن تقمع رغباتك وتخضع نفسك وتخالف هواك وتحكم شهواتك لتتحقق برتبتك ومنزلتك العظيمة كخليفة عن الله ووارث للكون المسخر من أجلك.. فانت لا تستحق هذه الخلافة والسيادة على العالم، إلا إذا استطعت أولا أن تسود نفسك وتحكم مملكتك الداخلية.. ومفهوم الأخلاق هنا فردى، وهدفه بلوغ الفرد درجة كماله وإن كانت هناك ثمرة اجتماعية يجنيها ذلك الفرد فإنها تأتى بالتبعية.

فالمجتمع الذى يتألف من مثل هؤلاء الأفراد لابد أن يسوده الوئام والسلام والمحبة.

والأخلاق بهذا المعنى هى خروج من عبودية النفس إلى مرتبة

عليا هي الجمعية مع الرب.. خروج من الجزء إلى الكل.. من النسبي إلى المطلق من الرغبة في شيء مادى إلى الرغبة في حضرة الإله، حيث يجب أن تتطلع كل العيون .. وهذا لا يمكن أن يتم إلا إذا تم تصحيح وتكميل بصر العين.. فأصبحت ترى كل شيء بحقيقة حجمه ونسبته لا تحجبها لذة دنيوية عن رؤية الكمالات الإلهية.

ولهذا تبدأ الأخلاق الدينية بمجاهدة الشهوات حتى تحكمها وتخضعها ولا تبدأ بالتسليم لها وبإشباعها كما في الأخلاق الشائعة، فهي ليست دعوة إلى حسن توزيع اللذات، وإنما هي دعوة إلى الخروج من أسر الملذات، وهكذا تفترق النظرتان تماما، وتؤدى كل منهما إلى إنسان مختلف.

فالإنسان المادي يستهدف النزوة واللذة الفورية والمقابل المادي العاجل «لأنه لا يعتقد في وجود شيء وراء الحياة الدنيوية»، وهو لهذا يجرى وراء «اللحظة» ويلهث وراء الـ «الآن»، ولكن اللحظة متفلتة «والآن» هارب والفوت والحسرة تلاحقانه في أعقاب كل خطوة يخطوها وهو متروك دائما وفي حلقه غصة وفي قلبه حسرة وكلما أشبع شهوته ازدادت جوعا. وهو يراهن كل يوم بلا ضمان وبلا رصيد فهو محكوم عليه بالموت لا يعرف متى وكيف وأين، فهو يعيش في قلق وتوتر مشتت القلب متوزع الهمة بين الرغبات لا يعرف للسكينة طعما حتى يدهمه الموت رغم أنفه.

أما الإنسان المؤمن فهو تركيب نفسي مختلف وأخلاقية مختلفة فهو يرى أن اللذات الدنيوية زائلة، وأنها لا تساوى شيئا، وأنها مجرد امتحان إلى منازل ودرجات وراءها وأن الدنيا مجرد

عيون إلى تلك المنازل والدرجات الباقية.. وأن الدنيا كالخيال وأن الله هو الضمان الوحيد في رحلة الدنيا والآخرة.. وأنه لا حاكم ولا مقدر سواه.. لو اجتمع الناس على أن يضروك لما استطاعوا أن يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك، وإن اجتمعوا على أن ينفعوك لما استطاعوا أن ينفعوك إلا بشيء «كتبه الله لك».

ولهذا فإن المؤمن لا يفرح لكسب ولا ييأس على خسران ، وإذا دهمه ما يكره.

قال في نفسه :

﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم، وأنتم لا تعلمون﴾ (٢١٦ البقرة)

والله عنده حكيم عادل رحيم لا يقضي بالشر إلا بسبب ولحكمة ولفائدة أو استحقاق عادل.

وهو يقاتل ثابت القدم أمام الموت، وهو يتغنى :

﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ (٧٨ النساء)

﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾(٨ ـ الجمعة)

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا مؤجلا﴾ (١٤٥ـ آل عمران)

وهو لا يحسد أحداء ولا يغبط أحدا، بل هو مشفق على الناس مما هم فيه من غفلة يقول له قلبه :

﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد.. متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ (١٩٦ ـ ١٩٧ آل عمران)

﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين.. نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ (٥٥ ـ ٥٦ المؤمنون)

﴿إنما نملى لهم ليزدادوا إثما﴾ (١٧٨ - آل عمران)

﴿ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير.. لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾ (٢٢ - ٢٣ الحديد)

﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾

وثمرة تلك الآيات عند المؤمن بها هى السكينة والهدوء النفسى وتطامن البال والثقة فى حكمة الله وعدله ورحمته وتصريفه.

ومثل هذا المؤمن كلما ترك شهوة من شهواته، وجد عوضا لها حلاوة فى قلبه، مما يلقى من التحرر الداخلى من أغلال نفسه ومما يجد من النور فى بصيرته.

وهو يترك السعى إلى الحظوظ للسعى إلى الحقوق ويترك الدعاوى إلى الأوامر.

ويترك أهواء النفس إلى وجه الحق.

ويكف عن التلهف والحركة وراء الأغراض والمناصب والرياسات والمغانم ويسكن إلى جنب الله.. وهل بعد الله مغنم؟

وهو مدرك بأن الجمعية مع الله لا يدانيها كسب، فإلى جانب اللانهاية تصبح جمعية الأعداد صفرا.

ومن صفات هذا المؤمن العامل لوجه الله أنه ناهض بالهمة على الدوام لا يفتر ولا يكسل ولا يتواكل، بينما يفتر من يعمل للأجر ويفتر من يعمل للخوف «يخدع الأول نفسه بالاستكفاء ويخدع الثانى نفسه بالتمني» أما القاصد وجه ربه فإنه لا يفتر لأنه لم يربط جهاده بأجر وهو لا يكسل متواكلا على مغفرة لأنه لا يتحرك بالخوف من عقاب وإنما هو عبد عاشق محب متطوع

يعمل وهو يغني لأن العمل عنده سعادة ولهذا لا تجده أبدا متبرما ولا متسخطا وإنما هو دائما طلق الوجه مشرق البسمة متفائل، حمّاد لربه في جميع الحالات لا يسب الدهر ولا ينسب لربه نقصا ولا قصورا.

وهذه التركيبة النفسية النادرة هي ثمرة الإيمان بالقرآن وهي ثمرة التوحيد.. والتوحيد يجمع عناصر النفس ويوحد اتجاه المشاعر نحو مصدر واحد للتلقي فيؤدي بذلك إلى أثر تركيبي بنائي في الشخصية بعكس تعدد الآلهة وتعدد مصادر الخوف والنفع والضرر فإنه يؤدي إلى توزع المشاعر وانقسام النفس وتشتت الانتباه إلى عديد من الجهات، ويؤدي بذلك إلى تفكيك رباط الشخصية.

والقارئ للقرآن الكريم يخرج بعلم نفس قرآني متميز بديع ومنفرد في تربيته للمسلم.

وليس عجيبا أن القرآن أقام حضارة وصنع تاريخا.. فإنه قبل ذلك قد أقام إنسانا وربى نفسا بديعة سوية متفردة في تكاملها وأشرق عليها بسكينة لا مثيلا لها .

ومثل تلك التربية الفذة تشهد للقرآن بأنه خرج من المشكاه الإلهية.

فلا مربي مثل الرب.

ماذا يقول فرويد وماذا يقول القرآن

وعلماء النفس في الغرب لا ينظرون إلى النفس إلا من خلال العيوب والأمراض والآفات والعلل.. ولا يفتشون إلا في الانحرافات والتشوهات والعقد ولا يقدمون لنا شيئا إيجابيا عن

النفس السوية الصحيحة.. والمنبع الوحيد للسلوك عندهم هو إشباع شهوة.. والمرجع الرئيسى الذى يفسر به فرويد جميع التصرفات هو عقدة أوديب وعقدة الكترا.. وهى شهوة الطفل فى أن يجامع أمه وشهوة البنت فى أن تجامع أباها.. وهى هلوسة سمعها من مرضاه الهستيريين، فجعل منها تهمة عامة ألصقها بالكل، ومن هنا كان الإحساس بالذنب عند فرويد مرضا.. والتوبة نكوصا .. والندم تعقيدا.. والصبر على المكاره برودا.. وقمع الشهوات كبتا.. له عواقبه الوخيمة.

بينما نرى الدين يقف على النقيض من هذه النظرة.. فيعلمنا أن قمع الشهوات هو شاهد على سلامة النفس واقتدارها وأن الإحساس بالذنب علامة صحة وأن التوبة موقف إدراك، والندم موقف علم تدل جميعها على فطرة سوية أدركت الله وعرفت أنه دائما مع الحق والعدل والخير.

ولا يرى الدين أن النفس محض رغبة وفجور، بل يصفها بأنها قابلة للفجور وقابلة للتقوى وأن الله ألهمها فجورها وتقواها معا، فهى تستطيع أن ترتقى فى معراج نورانى نحو الله أو أن تتهابط سفليا فى درك الشهوات.. وهى فى ذلك مخيرة.. وكل إنسان يتصرف على شاكلته.

﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ (٨٤ ـ الإسراء)

ويتوسع فرويد توسعا معيبا فى حكاية الجنس والطاقة الجنسية واللذة الجنسية، ويتصور أن الرضيع يمتص حلمة ثدى أمه بلذة جنسية (وهو كلام غير مفهوم، فالرضيع لم يباشر هذه اللذة بعد بحكم تخلف جميع أجهزته، وهو بالتالى غير قادر على تذوق هذه اللذة).

كما يتصور أن الصبي يحبس البراز في شرجه بلذة جنسية «وهو سوف يستبدل هذه اللذة حينما يكبر بهوايات جمع الأشياء مثل جمع طوابع البريد».

كما يتصور كل ما هو مستدير في الحلم رمزا لعضو المرأة التناسلي «مثل الكهف والدائرة والعلبة والخاتم والحلق والزجاجة» وبالمثل كل ما هو مستطيل رمزا لقضيب الرجل «مثل العصا والثعبان والقلم والمئذنة والبرج والسيف والمظلة» وكل حركة في الحلم هي رمز للعملية الجنسية «كالجرى والتسلق والسباحة وركوب الدراجة».

ثم هو يدمج كل أنواع الحب حتى حب الوالدين وحب النفس في هذه الحلقة الجنسية المفرغة، فحب الأم بالنسبة للولد «عقدة أوديب» وحب الأب بالنسبة للبنت «عقدة الكترا» وحب النفس «نرجسية».. وكأنما هي لعنة تمازج كل فعل.. فلا براءة في أي شيء.. ولا طهارة في أي خاطر ولا نقاء في أي فكرة.

وهو يخلق من تعلق الطفل بأمه عقدة أوديبية تهدف إلى كراهية الأب وقتله والتخلص منه في اللاشعور يعوضها الطفل لاشعوريا بالتحبب إلى الأب ومحاولة تقليده ويعوضها الكبار باختلاق أب سماوي يعبدونه تكفيرا عن رغبتهم الباطنية في قتل الأب الأرضي.

وهي مبالغات أقل ما يقال فيها أن صاحبها مريض بهوس جنسي.

ولا يرى فرويد من الأحلام إلا هذا الجانب الجنسي الحسي الشهواني، فالأحلام كلها إشباع لرغبات مكبوتة، وهي تحرس النوم بهذا الإشباع المتجدد الذي يريح النفس من أشواقها الملحة فتسترسل في نومها.

وفرويد وأصحابه لا يرون بذلك إلا نوعا واحدا من الاحلام وجانبا واحدا من النفس هو الجانب المادى الحيواني.

أما القرآن، فيعلمنا أن هناك نوعين من الأحلام.. نوعا يطلق عليه «أضغاث الأحلام» وهو حديث النفس الأمارة بشهواتها ورغباتها أو حديث الشياطين إلى تلك النفس أثناء النوم.. وهو ما أشتغل فرويد بتفسيره.

ثم نوع آخر من الاحلام هو الرؤى التى تأتى إلى النفس.. من الملأ الأعلي.. وتكون حديثا من الله إلى نفس النائم أو حديثا من الملائكة المكلفين إلى تلك النفس.. ومثال ذلك الرؤى الصادقة التى تتحقق بحذافيرها ونصها.

ولا مكان لهذا الرؤى عند فرويد .. ونظريته تعجز تماما عن تفسيرها مع أنها خبرة عادية عاشها كل منا وجرب طرفا منها.

كما أن رؤية المستقبل قبل حدوثه هى مسألة تهدم الفكر المادى من أساسه سواء الفرويدى منه أو الماركسى لأنها إثبات صريح يؤكد سبق الفكر على المادة، وسبق الغيب على الواقع ويميز القرآن بين هذين النوعين من الاحلام ويفصل بينهما .

يقول فرعون:

﴿ يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى ﴾ (٤٣ ـ يوسف)

﴿ قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتاويل الأحلام بعالمين﴾ (٤٤ ـ يوسف)

فهناك إذن أضغاث ورؤى.

ولكن فرويد لا يرى من الأحلام إلا تلك الأضغاث والهلوسة الشهوانية ولهذا يرى أن السعادة والراحة فى إشباع تلك

الشهوات بينما يرى الدين أن السعادة في مخالفتها وقمعها والقبض على زمامها والتسلق عليها عودا إلى الوطن الأول.. إلى الله الذي منه جاءت كل النفوس وإليه تعود.

والحزن الحق في الإسلام هو نتيجة فراق هذا الوطن الإلهي والإنغماس في ظلمة الدنيا.

أما الحزن عند فرويد فهو على العكس نتيجة حب الدنيا والحرمان منها.

وينظر علم النفس الحديث إلى النسيان باعتباره مرضا ينتج من عدم الاهتمام أو فرط الاهتمام أو كون الموضوع المطلوب تذكره موضوعا مؤلما أو بسبب تقادم العهد أو بسبب كبت الخبرة المنسية في اللاشعور.. والطبيب النفسي يحاول أن يصل إلى هذه الخبرة المنسية بالتحليل أو التنويم المغناطيسي أو بملاحظة المريض في أثناء تداعي خواطره.

ولكن الدين ينظر إلى الموضوع في إطار أوسع وأشمل، هو إطار العلاقة بالله، فمن كان قريبا من ربه ذاكرا له على الدوام كانت قدرته دائما مكتملة وحاضرة وجاهزة لا ينسى شيئا ولا يغيب عن باله شيء لأنه في دائرة النور.. أما البعد عن الله فيدخل صاحبه في دائرة الظلمة ويجعله من أهل الغفلة.

﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ (١٩ ـ الحشر)

وهؤلاء هم الذين يتخبطون في متاهات النسيان والحيرة والضياع.

والفرق بين نظرة علم النفس ونظرة الدين هو افتقاد علم النفس للشمول والنظرة الواسعة الكلية وسجنه لنفسه داخل إطار الخبرة المادية والدنيا المادية واللذة المادية.

وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى الوسواس والخاطر فيرى انه نفث من اللاشعور وأنه حديث النفس إلى النفس ولا يتصور أن تلك النفس تحيا في محيط آخر خفي وأنها يمكن أن تكون محلا لمخاطبة الملائكة ووسوسة الشياطين أو مكالمة الرب جل جلاله.

وبهذا المنظار ينظر علم النفس إلى العذاب النفسي فلا يكاد يخرجه من إطار الحرمان من اللذات المادية.. ولا يتصور أن العذاب الدنيوي يمكن أن يكون ابتلاء وامتحانا من الخالق الذي خلق.. كما يفعل الحداد بالحديد حينما يدخله النار ثم يلقى به في الماء البارد ليزداد صلابة.. أو كما يصهر الصائغ معادنه ليفرز ما فيها من ذهب وما فيها من نحاس وما فيها من خبث وتراب.

ويظل علم النفس سجينا لهذه المحدودية وهذه الرؤية المادية الحسية لكل شيء بشكل ينتهي به إلى الخطأ في جميع أحكامه.. فهو مثل الأعمى الذي اكتفى بأن يمسك الفيل من ذيله ثم راح يصور لنفسه أن هذا الذيل هو الفيل.

ولهذا ينظر علم النفس إلى العمل في نطاق الفعل والحافز دون أن يتعب نفسه في تحليل مدى صدق وإخلاص هذا الحافز ودون أن يتخطى هدف الفعل ويسأل ماذا يريد به صاحبه.. هل يريد تحصيل المال أو الشهرة أو المجد أو الجاه عند الناس.. أو هو يعمل خالصا مخلصا لوجه الله؟

والفرق كبير وهائل بين العملين.. وهو أيضا كبير وهائل بين النفسين.

وفصل الأخلاق عن أهدافها هو في النهاية فصل لها عن منبعها الأصيل الذي هو الدين.. فالدين وحده هو مصدر الأخلاق..

والرحمة والعلم والرأفة والمودة والكرم هى من الله.. فهو وحده الرحمن الرحيم الكريم الودود الرءوف الحليم، كما تقول لنا أسماؤه الحسنى، وهو الذى يتجلى بهذه الأخلاق على كل من يستحقها .

ولهذا يختلف علم النفس والدين فى علاج الأمراض النفسية.

فلا يرى علم النفس إمكانا لتبديل النفس أو تغييرها جوهريا لأن النفس تأخذ شكلها النهائى فى السنوات الخمس الأولى من الطفولة.. ولا يبقى للطبيب النفسى دور سوى إخراج المكبوت فيها إلى الوعى.. أو فتح نوافذ للتنفيس والتعبير وتخفيف الغليان الداخلى.. وبهدف الوصول إلى ذلك يلجأ الطبيب النفسى إلى العلاج بالتنويم المغناطيسى أو العلاج بالإيحاء أو بالتنفيس والتعبير والفن واللعب أو العلاج بالاستغراق فى عمل آلى أو العلاج بالإشباع المباشر.

وكل هذه الصور من العلاج أشبه بعلاج السرطان بالمراهم أو المسكنات لأنها لا تحاول أن تغير من النفس شيئا، فكلها تقبل وجود الدمل النفسى على حاله ثم تقول للمريض.. اصرخ أو تأوه أو ارقص أو «غنى» لتنفس عن آلامك.. أو تضع يده على الدمل وتقول له.. هنا الدمل.. وهذا كل جهدهم.

أما الدين فيقول بامكانية تبديل النفس وتغييرها جوهريا ويقول بامكانية إخراجها من ظلمة البهيمية إلي أنوار الحضرة الإلهية ومن حضيض الشهوات إلى ذروة الكمالات الخلقية وذلك بالرياضة والمجاهدة.

ويكون ذلك على مراحل.. أولاها :تخلية النفس من عاداتها المذمومة وذلك بالاعتراف بالذنوب والعيوب وإخراج هذه العيوب إلى النور.

كما قال موسى لربه بعد قتل المصرى خطأ:

﴿ رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له﴾

(١٦ ـ القصص)

وكما نادى يونس فى الظلمات:

﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين﴾

(٨٧ ـ الأنبياء)

والمرحلة الثانية: هى التوبة وقطع الصلة بالماضى والندم على مافات ومراقبة النفس فيما يستجد من أمور ومحاسبتها على الفعل والخاطر.

والمرحلة الثالثة: هى مجاهدة الميول النفسية المريضة بأضدادها. وذلك برياضة النفس الشحيحة على الإنفاق وإكراه النفس الشهوانية على التعفف ، ودفع النفسّ الأنانية إلى البذل والتضحية وحث النفس المختالة المزهوة على التواضع والانكسار واستنهاض النفس الكسولة إلي العمل.. وبمعالجة الضد بالضد تصل النفس إلى الوسط العدل.. وهو صراط الحكمة.. وهو حظ الكاملين من البشر.

ولا تنجح تلك الرياضة دون طلب المدد والعون من الله ودون الصلاة والخشوع والخضوع والفناء في محبة الله ركوعا وسجودا في توحيد كامل (وتوحيد الله لا يكون إلا بطاعته الكاملة والاسترسال معه.. لا تريد لنفسك إلا ما يريد لك ربك.. ولا تطلب لنفسك إلا ما يطلبه هو لك) وهنا تحدث المعجزة.. فيتبدل القلق سكينة والفزع طمأنينة والخسة الشهوانية عفة وطهارة.. والنواقص النفسية كمالات .

وذروة العلاج النفسى فى الإسلام هى «الذكر» ذكر الله بالقلب

واللسان والجوارح والسلوك والعمل.. واستشعار الحضرة الإلهية على الدوام وطوال الوقت فى كل قول وفعل.

وفى الذكر شفاء ووقاية وأمن وطمأنينة لأن الذكر يعيد الصلة المقطوعة بين العبد والرب ويربط النفس بمنبعها ويرد الصنعة إلى صانعها.. حيث هو الأعلم بعيوبها والأقدر على علاجها.

﴿ ادعونى أستجب لكم ﴾ (٦٠ ـ غافر)

﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ (١٥٢ ـ البقرة)

فيعود النور ليغمر ظلام النفس ويحل العمار مكان الخراب وتتجلى الكمالات الصفاتية الإلهية على قلب العبد الخاشع.

وبينما يرى فرويد الطيبة تخاذلا وسلبية وينصح مريضه قائلا له : «كُل وإلاَّ فأنت مأكول».

نرى نحن الطيبة قوة إيجابية.. ونأمر بالصفح:

﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ (١٠٩ ـ البقرة)

﴿ فاصفح الصفح الجميل ﴾ (٨٥ ـ الحجر)

﴿ وان تعفوا أقرب للتقوى ﴾ (٢٣٧ ـ البقرة)

وبينما يختار فرويد من الأعمال ما يساعد على تفريغ وتنفيس الغليان النفسي.. نشترط نحن العمل الصالح.

وبينما يرى أن ماضى الطفولة حاكم على كل إنسان وموجه لأفعاله لا نقول نحن بحاكم إلا الله.. ونقول إننا بفضل الله يمكن أن نخرج من أى حكم ونتخلص من أى حكومة، وبينما يقول بفطرة عدوانية وبغريزة التحطيم والهدم وغريزة الموت وبالطاقة الشهوانية كدوافع رئيسية، نقول نحن :إن الإنسان فُطر حرا مختارا بين النوازع السالبة والموجبة يختار ما يشاء منذ البداية.

وسبب كل هذه المادية الفرويدية ومادية علم النفس بوجه عام

هو تصوره للإنسان تصورا آليا حيوانيا حسيا فسيولوجيا.

وهوعين ما فعله كارل ماركس حينما تصور أن التاريخ عربة تحركها المصالح المادية والقوى المادية وحدها.. وأن حركة التاريخ هي دائما ثمرة الصراع بين طمع الأغنياء وحقد الفقراء إلى آخر ما حكيناه في الكلام عن الصراع الطبقي.

وهذا التصور المحدود والأفق الضيق المسدود هو الذى أدى بالاثنين إلى اعتساف الفروض والتخريجات.. وهو الذى أدى بالاثنين إلى تلفيق ما قالاه عن النفس وعن التاريخ.. وهو الذى انتهى بالاثنين إلى اعتساف الأدلة وتزييف البراهين.

وقد ظهر فشل الطب النفسي الحديث من التتبع الإحصائي للحالات التى تم علاجها نفسيا.. فقد اتضح أن معدل شفاء المرضى المصابين ثابت، سواء عولجوا على طريقة فرويد أو عولجوا بطريقة أدلر أو لم يعالجوا على الإطلاق، فمن يشفى منهم حاله كحال مريض الانفلونزا مصيره إلى الشفاء سواء بالعلاج أو بدون العلاج.

وأخيرا رأينا الطب النفسى ينتكس ويرتد إلى العلاج المادى بالمسكنات والمهدئات والمخدرات والمنومات.. وهو اعتراف بالعجز والفشل.. وهروب من المشكلة كلها بالنوم عنها.

وكيف لا تنتهى الفرويدية إلى الفشل وهى القائلة باستحالة تغيير النفس وتبديلها.. وبأن النفس تتشكل فى سنوات الطفولة الاولى.. ثم تصبح قدرا لصاحبها لاخلاص منها.

وماذا أبقت لنا هذه النظرة سوى العلاج بالمسكنات والمراهم الخارجية.

لقد انتهى علم النفس الفرويدى إلى الفشل لأن منطلقاته

معظمهـا خاطىء وكان أكبر أخطاء هذا العلم أنه ليس علمـا كما أن الماركسية لم تكن قط علما وإنما هي مـجموعة أفكار ظنية وأحقاد باطنية.

كمـا أن علم النفس الحـديث هو الآخر مـجمـوعة أفكار ظنـية وافتراضــات خيالية، وهذا بعض ما أورثتنا الحـضارة المادية من ظنون وأوهام.

ومن تلك الـظنون والأوهام ذلك الذى يـسـمــونه علم الـنفس التـجريبى الذى يجـرى تجاربه على الإنسان كـمـا يجريهـا على الفئـران والارانب والكلاب ويتصـور النفس الإنسانيـة مجمـوعة ردود أفعال فسيولوجية مادية ولا أكثر.

وهو تصـور خاطىء، فالنفـس الإنسانية «ذات» قـبل كل شـىء ولا يمكن إحالتـها إلى موضـوع مـجرد.. وهى كالحيـاة إذا أعملت فيها مبضع التشـريح ماتت فى يدك.. والنفس دائما تستخفى على النظرة التـحليليـة وتتنكر بما تـطرح فى الظاهر من ردود أفعـال سلوكية وهى لا تعطى سـرها أبدا حتى لصاحبـها إذا بدأ يتدبرها كموضـوع، لأنها ليـست موضـوعا بل هى فى جوهرها «ذات» بكر إذا فضـضـت بكارتها وهتكت استـسرارها وحاولت أن تقـتحمـها بالنظرة الموضــوعية استـعصـت عليك وتفلتت منك بمجـموعة من البدائل السلوكية الخادعة وتحولت إلى شـىء آخر.. ولم تعد «هى».

ويظل دائما الفارق بين ما ترى منها فى الظاهر وما خفى عليك من حقـيقـتها، كـالفارق الهـائل بين الجسـد الظاهر والروح التى تسكنه.. وأنت لن تصل أبدا إلى كنه الروح بتشريح الجسد.. وإنما أنت على أحسن الفروض سـوف تفهم الجسد أكثر فـأكثر ولكنك تظل دائما بعيدا كل البعد عن إدراك سر الروح ولغزها.

وخطأ أصحابنا الماديين أنهم يتعاملون مع النفس الإنسانية على أنها مادة هي الأخرى وجسد يمكن اقتحامه بالتشريح والتجربة.. وهم يفعلون هذا عن إيمان بأنه لا روح هناك ولا ذات ولا نفس.. وإنما مجموعة مركبات كيمياوية وجينات وراثية اسمها الإنسان وتلك هي خطيئة الحضارة المادية.

وواجبنا أن نعرض هذه الحضارة على الفرز.

ولقد عشنا مئات السنين عالة على الغرب ولكننا اليوم نستطيع أن نعطي الغرب ونعطي الشرق وما أكثر ما يستطيع الإسلام أن يعطي هذا العصر الخرب.